

الجانسب القومي فجاء ادب الشاعر القروي

أنور ضو

من « البربرة » القرية التي دخل اسمها التاريخ في الحرب اللبنانية، إنطلق الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يصيح بأناشيد الوحدة القومية والتلاقي الإنساني... وارتفع صوته هادراً مدوياً داعياً إلى تمزيق السدود والحواجز بين أجزاء الوطن العربي الكبير، ولم يدر في خلدته يوماً، أن بلدته التي يقدر تراها، ستتحول في غفلة عنه إلى حدٍ وهمي جديد يُقام فوق أرضها، فيما عيناه غارقتان في الأفق البعيد تستجليان شمس العروبة التي ستحرق بلهيبها كل الحواجز المصطنعة، التي أقامها الاستعمار بين أرجاء الوطن الواحد من المحيط إلى الخليج... إنها مصادفة رهيبية، لا شك في أنها ظلت تقض مضجع القروي، وتفسد عليه صفاء شيخوخته الهادئة حتى نهاية عمره النضالي المديد.

ولد الشاعر القروي في البربرة عام ألف وثمانمائة وسبعة وثمانين، فيما بلاده رازحة تحت نير الحكم العثماني في أحلك أيامه، أيام السلطان عبد الحميد الثاني (1842 - 1918) الذي حكم البلاد حكماً استبدادياً، ولقب بـ « السلطان الأحمر » لكثرة ما سفكه من الدماء.

فتح « رشيد » عينيه على الحياة، فهاله منظر وطنه، فريسة بين أنياب وحش الاستعمار المفترس. فقصر جهوده كلها على محاربة ذلك التين، في محاولة لتخليص أمته من بين براثنه. ونذر شعره في سبيل قضايا أمته إلى حدٍّ جعل الكثيرين من عارفه يطلقون عليه لقب « قديس القومية العربية، واعتبروه شاعرها المؤتمن على عزتها وكرامتها ».

فما هي دوافع الاتجاه القومي عند الشاعر القروي، وكيف برز هذا الاتجاه في أدبه؟
ربما كان الشاعر نفسه قد خفف عنا بعض العناء في البحث حول دوافع قوميته حين يقول في مقدمة ديوانه:
« ما كدت انهض بقادمتي حتى صكت مسامعي أناث أمتي، ولفحت وجهي زفرتها. فطويت جناحي عند

سريرها مخضعاً خيالي لواقعها الألم، مقدماً واجب تمريرها على التفريد في الخائل والتقدير بين الحقول. ولو أني أدركت أمتي صحيحة قوية، خلقت مع الأسراب في ألف سماء بعد سائها»⁽¹⁾. وفي حديث له معي، طرحت عليه تساؤلي حول الدوافع الكامنة وراء سيره في الاتجاه القومي. فأجابني قائلاً:

«السير وراء هذا الخط لم يكن خياراً بين خطين، لأن هذا أمر طبيعي أن يحب الإنسان أباه وأمه وأخاه كما يحب نفسه. أنا ربيت ونشأت وبلادي مستعمرة ومستعبدة، والقوم قومي يضجون حولي بالتظلم والشكوى. فحسي الدقيق هو الذي حفزني وأمرني أن أكون في عون أخي. هذا هو الدافع لا أكثر ولا أقل وهو طبيعي»⁽²⁾.

في هذه البيئة المنكرة الغارقة في بحار الظلم والإرهاب، نشأ القروي متمتعاً بلياقة بدنية عالية وتفوق رياضي، ومتنشقاً نسيم الحرية والإباء مع هواء الجبل الطليق الذي نغاه، فسرت بين جوانحه روح الفروسية، وتسربت محبة وطنه إلى كل ذرة من ذرات كيانه. فكيف له أن يرضى بالذل والخنوع، في وطن يرسف بالغلal ولا يحرك ساكناً؟ إن نفوس الأحرار لا تغذي إلا بحبز الحرية، فإذا امتنع عليها تطوي جائعة معها بذلت لها أنواع الطعام. لذلك رأينا شاعرنا يودع ربوع بلاده ليهاجر إلى البرازيل، بعد أن سدت في وجهه منافذ العيش الكريم، حين لم يبق أمام اللبنانيين سوى أمرين لا ثالث لهما: «إما الهجرة وإما الذلة والخنوع، فهاجر منهم من هاجر، وخنع من خنع»⁽³⁾. لقد خاب ظن الشاعر القروي بجمعية الاتحاد والترقي التي أرغمت السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور، ففرح وصفق، وظن أن شمس الحرية والديمقراطية سوف تسطع بنورها فوق سماء العروبة. ولكن أمله خاب، حين وصلت جماعة الاتحاد والترقي إلى الحكم، فلخنت المبادئ التي أعلنتها، وتطرفت في ذلك إلى درجة الدعوة إلى تترك العرب وسائر العناصر الأخرى. فعملت على طمس معالم الشخصية العربية، وإلى العبث بمجداً بالحريات، وتطهير المراكز الحساسة في الدولة من غير الأتراك.

هذه اللوحة القائمة، هي صورة صادقة عن واقع لبنان والأمة العربية حين أبحر «القروي» وفي قلبه أمواج أعنت من تلك التي يمتطيها. لقد حمل وطنه في صدره، ورسم صورته في صفحة عينيه، فاضطرم صدره بالصراع بين رغبة البقاء في الوطن، ودافع الحاجة الضاغطة باتجاه الإغتراب. وهل أشقى على المرء من أن يجد نفسه مرغماً على مغادرة دياره، تاركاً ملاعب صباه مسارح للغربان وفريسة للذئاب؟ إن نار الحنين إلى الوطن، في مثل هذه الحالة، أبدية السعير ولا تقوى على إخمادها مياه كل محيطات الأرض. من هنا كان شعر الحنين إلى الوطن بارزاً في مجمل نتاج القروي في المهجر، وقد ظل هذا الشعر سلكاً خفياً يربط الشاعر بوطنه، ومعراجاً له نحو قوميته وعروبه.

لقد استقر شاعرنا في «سان بابلو» بعد أن ضاقت سبل عيشه في «مريانا» و«ريو دي جنيرو». وهناك بدأ عهد جهاده الأدبي وكفاحه القومي، منشداً الجالية العربية أجمل ألحان الحرية والبطولة، بعد أن صار شاعرها وشاغل صحفها، وجمعياتها، وأنديتها، وبلبل حفلاتها. فقاوم بقصائده المدوية كل أشكال الاستعمار. ناضل ضد

الأتراك الذين نشروا شبح الجوع في طول البلاد وعرضها، فدعا إلى طردهم من البلاد، وانضم إلى الثورة العربية بقيادة الشريف حسين، وكاد يعود إلى الوطن للقتال في صفوفها، لو لم يثنه عن إرادته بعض الأصدقاء. ثم كان عهد الانتداب وانفضاح وعد « بلفور » وانتشار الثورات في العالم العربي، فقويت الحركة الفكرية، وانشطرت كتاب المهجر إلى احتلاليين، واستقلاليين، ومرترقة مذبذبين، ومست حاجة الجالية إلى شاعر ينشد لها الحان الحرية، فانبرى القروي لتأدية الرسالة مديباً قلبه ودماعه وصحته ورزقه ومضحياً بأجرته في سبيل هذا الواجب الوطني. وبعد أن يقيم الحفل ويقعده، يخرج إلى بيته فلا يجد عربة تقله. وإذا بالصحف الاحتلالية، تصدر في اليوم التالي، وهي توسعه قذعاً، وقد تحمل على الذين دعوه إلى الكلام⁽⁴⁾.

وهكذا كان هذا الرجل شاعر الحرية والعروبة، في حين توزع أدباء المهجر الجنوبي إلى اقليمين ينادون بتحرير الوطن الصغير واستقلاله، وبجَاهرون بالنزعة الفينيقية، وبين موالين للدولة العثمانية يؤيدون بقاءها ويعتبرونها حامية للعرب والإسلام، أو استعماريين شعوبيين يؤيدون الانتداب الأجنبي. وكان هناك فريق آخر نادى باستقلال سورية وانفصالها عن الدولة العثمانية، وانتهى أخيراً إلى المناادة بالقومية العربية وبالوحدة العربية، التي تجمع أقطار العرب كافة.

أما لماذا كان الشاعر القروي من هذا الفريق الأخير. فهو نفسه يقول: « أن الثورات العربية في الأقطار العربية هي التي أيقظت حسي القومي. حسبي من ثورات العرب الدروز أخواني، ما كان يثير حماسي القومية واعتزازي، ويشير نفسي للجهاد في سبيل ما كانوا يجاهدون في سبيله، وإن أكن لم أمتشق سيفاً أو أسد رمحاً »⁽⁵⁾.

والحقيقة أننا في محاولتنا فهم سر اندفاع الشاعر في الاتجاه القومي العربي، رغم تعرضه كثيراً للنقد الضعيف والاضطهاد من قبل أصحاب الاتجاه الاستعماري والشعوبي، نحاول أن ننفذ أكثر فأكثر إلى طبيعة المرحلة، التي تميزت باحتدام النضال ضد العثمانيين، والتي سبقت انهزامهم في الحرب العالمية الأولى. فلو صح ما ذهب إليه « زين نور الدين زين » من أن الحركة المناوئة للأتراك في لبنان، في القرن التاسع عشر، كانت بوجه الإجمال مارونية - لبنانية، ولا يمكن اعتبارها ثورة وطنية في الشرق العربي ضد الحكم التركي، بل هي نابعة من شعور هؤلاء باحتقار الأتراك لهم⁽⁶⁾. ثم ما يضيفه « وجيه كوثراني » عن وجود انتهاء (قومي سوري) معاد للأتراك في الوسط الثقافي المسيحي (وهو ذو انتهاء أرثوذكسي وكاثوليكي غالباً)، نشأ في ذلك الحين وهو لا يحمل أي تحديد لمفهوم الوطن ومفهوم سورية، بل استخدم وفق الصيغ الغربية التي راجت يومذاك، والتي تعكس ضمناً أو صراحة، مشاريع تجزئة الامبراطورية العثمانية، وفق التمرکز الاستراتيجي والاقتصادي لمصالح الدول الاستعمارية يومذاك⁽⁷⁾.

لو صح هذان الرأيان لما انطبقت بأي شكل على الشاعر القروي. فهو أولاً ليس مارونياً. ثم إنه لا يمكننا اتهامه بالإنزلاق في الصيغ الغربية ومشاريع تجزئة الامبراطورية العثمانية، لأن ثورته على الاستعمار الغربي « وزرق

العيون» الذين توزعوا بلادنا فيما بينهم، إثر توقيع اتفاقية «سايكس - بيكو»، لم تكن أقل عنفاً من ثورته على الأتراك، بل وبالعكس فقد ثار عليهم بضراوة، وانتقد بشدة من كان يماثلهم، ويسكت عن مظالمهم، وهو لا يزال حتى اليوم يثور على الاستعمار بأشكاله كافة، ولا يرقى أدنى شك إلى اتجاهه القومي نابعة من عوامل عدة أهمها أنه ولعل أقرب ما يكون إلى الواقع هو أن اندفاع القروي نحو الاتجاه القومي نابعة من عوامل عدة أهمها أنه ولد في بيئة مستعبدة ترسف بالقيود، فعانى ما عاناه مواطنوه من المظالم التركية حتى بات يشعر بالضيق والغربة، في عالم ظالم جائر، يسمن فيه القوي على حساب الضعيف، ويخضع صغاره أمام جبروت الكبار. فانفجرت براكين الثورة مدمرة في صدره منسجمة مع الحركات التحررية السرية التي نشأت في تلك الآونة من بين ركام الظلم والطغيان، متأثرة بالمناخ التحرري والقومي الذي شاع في أوروبا في القرن التاسع عشر، والتي كانت أصداؤها قد وصلت إلى أذني الشاعر، وساهمت في إثارة حماسه القومية. وقد برزت آثارها في لبنان بشكل قصائد وطنية، أعجب بها عم الشاعر، فدعاه للهجرة إلى البرازيل حيث تابع نضاله بعزيمة أشد، وشاعرية أخصب.

وفي البرازيل كانت عروبة القروي تحدياً في وجه الاستعلاء الذي شعر به العرب من المهاجرين الأوروبيين، ورداً على بعض المهاجرين العرب الشعبويين الذين يرفضون فكرة القومية العربية، ويحلون مكانها دعوات إقليمية انعزالية ضيقة. ولعل القروي كان يرد على كل هؤلاء بلسان كل شعراء العروبة في المهاجرات، حين قال:

أنا العروبة لي في كل مملكة	انجيل حسب ولي قرآن إنعام
سل عهد شامي وبغدادى وأندلسي	عن عمق فلسفتي، عن عدل أحكامي
ما اخضوضر الشرق الا تحت أقدامي	وازهوهر الغرب إلا تحت أعلامي

ومن ناحية ثانية فقد اضطرت روح العروبة في صدر القروي، حين كان يرى أقواماً تفاخر بنسبها العربي، لا سيما المهاجرون الأسبان الذين يعودون بأصولهم إلى عرب الأندلس، ومن بينهم الشاعر الأسباني الكبير «فرانيسكو فيلاسباسا». أما البرازيليون، فقد كانوا يحترمون المهاجرين العرب ويكرمونه، بعكس ما كان المهاجرون إلى الشمال يلقونه من ألوان التعصب ضدهم. وهذا أحدهم «أسيس شاتوبريان» وهو ملك الصحافة البرازيلية يقول: «طالما قال لي الناس في أثناء تجوالي في أوروبا، حين كانوا يشاهدون سحنتي: أنت عربي؟ فكنت لا أجيب بالنفي، لأن من حق المرء أن يفخر إذا نسب إلى شعب عريق في الحضارة، أصيل في المدينة كالشعب العربي»⁽⁸⁾. ولقد كان لمناخ الحرية السائد في البرازيل تأثيره في اندفاع الشاعر لتحرير أمته من عبوديتها. فهو يرفض حضور العرض العسكري بمناسبة عيد استقلال البرازيل، لأن جرح العبودية في وطنه ما زال نازفاً، فكيف له أن يطرب لقرع الطبول في البرازيل، فيما لا يعزف في بلاده إلا لحن الموت والخضوع والاستعباد. فيقول:

دعني، ففرع طبولهم ضرب على أضلاع هذا اليأس المنكود

دعني فهذا يومهم لا شأن لي فيه وعيدي غير هذا العيد
أنا لا أشارك سادة في عيدهم ما دمت عبداً ينتمي لعبيد

ثم لا ننسى دور « العصابة الأندلسية » ومجلتها (العصبة) في ايقاظ الوعي القومي وربط الأدباء بأوطانهم (وقد كان القروي رئيساً لها بعد ميشال المعلوف)، ودور الجمعيات والأندية التي عملت على منع المغتربين من الذوبان في البيئة الجديدة.

وإذا كان لشخصية الشاعر دورها في تحديد اتجاهات الشعر لديه، فإن القروي من هذا المنطلق ذو شخصية قوية لا تعرف الانهيار، وصاحب عقيدة ثابتة ناضل في سبيلها بصلاية وعنفوان. وهو إلى ذلك رقيق الشعور، متدفق العاطفة، ذو مزاج ناري، يكتنه من التفاعل السريع مع أحداث وطنه. يرقده في ذلك وعي كامل، وحب للوطن، وإيمان عميق بالعروبة، على عزة نفس وإباء برزا في كثير من مواقفه، مما دفع إيليا أبا ماضي كي يقول فيه ^(٩):

وإذا تلوح إلى الجبال ذكرته فالشاعر القروي طود إباء

أما جورج صيدح فيحدثنا عن عروبة القروي وعزة نفسه وسمو أخلاقه فيقول: « عرفت القروي في مجالس الأدب وفي داره وبين أهله، وكأني عرفت غاندي جسم غير جسمه وزي غير زيه.. لم تعرف العروبة مثله شاعراً أميناً على عزتها وكرامتها، ثابتاً على مبادئها، زاهداً في مالها وحطامها » ^(١٥). ثم يحدثنا عن رفضه فكرة إهداء منزل له من قبل أدباء الأرجنتين والبرازيل، معلناً أن الكفاف يكفيه والغنى لا يغنيه. وهو يحلم بقبر في وطنه لا بقصر في غربته:

بنت العروبة هيئي كفي أنا عائداً لأموت في وطني
أجود من خلف البحار له بالروح، ثم أضن بالبدن

المفهوم القومي عند القروي:

لقد أوجز الشاعر القروي مفهومه للقومية العربية في مقدمة ديوانه، وذلك في معرض رده على الشعبيين الهازئين، الذين يجاهرون بفشل العروبة، ليحلوا محلها بعض الدعوات الإقليمية التي لا تستند إلى مرتكزات ثابتة من اللغة والتاريخ. فيقول لهم:

« العروبة شعار الأمة العربية، وروحها، وشمس أوطانها، ومهوى أفئدتها، وملتقى ما تعدد من أقاليمها ولهجاتها. العروبة دين الأمة الشامل. والدين إيمان ومحبة، وتعاون، وخير عميم. وبرنامج العروبة ليس أبجدية مواد وبنود، بل هو معانٍ تعمر بها القلوب، ومناقب حفلت بها سير أبطالكم في العصور » ^(١١). فالقومية العربية كما نلاحظ، قائمة في نظر القروي، على عوامل عدة، أهمها، وحدة اللغة والتاريخ، ولا يزالون يعتزون بها ويفخرون.

أما الدين، فمع تأكيد القروي على أهمية التراث الإسلامي في تكوين القومية العربية، إلا أنه يعتبر أن هذه القومية تتسع لتشمل كل الأديان المتحدة في جوهرها، فتصبح العروبة هي دين الأمة الشامل، القائم على الإيمان والمحبة والتعاون والخير العميم.

ولا يغفل القروي في تحديده للقومية أهمية الشعور بوحدة النسب. فيناشد فتیان العرب كي لا يقعوا فريسةً لقادة عمه، يوقعون في قلوبهم أنهم ليسوا عرباً، فيضلونهم عن أنفسهم، ويتعسفون بهم كل طلسماء. العروبة هي انتساب يتعدى الأقاليم «هي أن يشعر اللبناني أن له زحلة في الطائف، والعراقي أن له فراتاً في النيل. العروبة هي دم زكي يجري في عروق جسد واحد أعضاؤه الأقطار العربية» وهي في نظر القروي استلهم للماضي بروحه وقيمه ومثله، واقتفاء لآثار أبطاله في كل نهج وسلوك. وهو يعتز بالجواهر الروحية للقومية العربية، الذي يتصل بتراث الإسلام. وهو يفخر بكون شارعنا العربي قد ضرب المثل الأعلى في الديمقراطية الحقة، وجهر بمبدأ الحرية والإخاء والمساواة، فيجعل فك الرقاب كفارة عن الذنوب. وقال في حديثه: «الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» وجعل للفقراء نصيباً من مال الأغنياء حين فرض الصدقة على المسلمين. كل ذلك قبل الثورة الفرنسية، وقبل شريعة تحرير العبيد الإسمية في أميركا بأكثر من ألف سنة. وهو يرى أن لا خوف على العروبة من أي نظام اشتراكي، لأن كل ما ينصف العامة من الخاصة، ويأخذ حق الضعيف من القوي، يلائم سجيته، ويرضي دينها.

ويمضي القروي في تعريف قوميته، وفي إظهار تعلقه بها وحبها لها، حتى يكاد يتمزج بأمنته. فأني جرح يصيبها يسيل دمه، وأية قوة تأتيها تشد ساعده وتشحذ عزيمته فيقول:

«أمتي: أنا مكثراً، ووطني: أنا مكثراً. إذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحي، وإذا هدرُوا عربياً في لبنان أو تطوان، فكأنما شربوا نغمة من دمي. وكأن كل بلد قوي من بلادتي ساعدي مفتولاً، وكل شعب خامل فيها زندي مشلولاً. بل ما أعد ذاتي إلا خلية في جسد أمشي. أنا واحد من سبعين مليوناً من العرب، كل واحد منهم أنا فينبغي أن أحبهم قدر سبعين مليون نفس كنفسني»⁽¹²⁾.

وهكذا، فقد اتسع الوطن في مفهوم القروي وترامت أطرافه لتصبح حدوده حدود الوطن العربي الكبير. وهو بذلك يناقض أصحاب النزعة الإقليمية، الذين يفصلون الوطن على قياس الدولة، ويساوون بين مفهومه ومفهومها. هؤلاء لم يأخذوا حقائق التاريخ بعين الاعتبار، ولم يلتفتوا إلى الوحدة في الشعور، والاشترك في الآلام، والآمال، واللغة، والتراث. لذلك كان عليه أن يخوض حرباً شعواء ضدهم. فهو على الرغم من اعترافه بفضل الفينيقين في عمدين العالم كله، إلا أنه يعتبرهم فرعاً من أصل واحد هو العروبة، بدليل عروبة القبائل الكنعانية التي تحددوا منها، ويتصدى لكل الذين «يفينقون» في لبنان ليتنكروا لقوميتهم وعروبتهم:

ولئن هدمت معاقل البلى فما ركن «التفينق» ناجياً من معولي

- ما كان كنعان وعثرته سوى عرب كفسان، وإن تجهل سسل

وهو كذلك قد ثار على الذين ينادون بالفرعونية في مصر ، في وجه تيار القومية العربية الزاخر فيها ، والذي قاده الرئيس الخالد جمال عبد الناصر ، وما ذلك إلا ليتحللوا من عروبتهم محتبئين وراء الموامي والدمى ، التي يستبدلون حضارتها بحضارة العرب الزاهية . فيقول :

من يبكِ عهد الموامي والدمى فأنا والحمد لله قد حطمت أصنامي
شغلت قلبي بحب المصطفى ، وغدت عروبتني مثلي الأعلى وإسلامي
بناصري وبأسواني فخرت إذا باهى الدعي بفرعون وأهرام

كما أن مفهومه للقومية يناقض مفهوم « أنطون سعادة » الذي دعا إلى وحدة الهلال الخصيب كأمة سورية تامة ، في حين يدعو القروي إلى وحدة الأمة العربية كلها ، فيما يتعدى الهلال الخصيب إلى الأقطار العربية الباقية . ولقد نشأت بين الرجلين نقاشات كثيرة حول مفهوم الأمة ، إلا أنها لم يتفقا ، وبقي كل منهما على موقفه ، مما دعا سعادة إلى توجيه النقد اللاذع له عبر جريدته « سوريا الجديدة » في البرازيل و« الزوبعة » في الأرجنتين وإطلاق حملة مركزة ضده ، كان القروي يرد عليها في بعض قصائده .

هذا هو المفهوم القومي العام للعروبة عند القروي . بقي أن نشير إلى أن قوميته لا تتناقض مع الإنسانية ، ولا تسير عكس وجهتها . فهي ليست عنصرية ولا إقليمية . بل هي جزء من هذا الكون ، تؤدي فيه رسالة إنسانية سامية ، قوامها العدل والبر والهدى ونتائجها حكمة وفن وعمران ورفاه . وهو في ذلك يقول : « وطنية العربي ما كانت قط اعتداءً أثمياً ، ولا حقداً لئيماً ، نشأت رسالة تكبير وتوحيد ، ودعوة تعاون على البر . ومشت في أحلك العصور ، وفي يمينها قسطاس العدل ، وف يسارها نبراس الهدى . وما زالت تعطي باختيارها أضعاف ما أخذت بانتصارها ، حتى ملأت دنيا الناس حكمة وفناً وعمراناً ورفاهاً . وعادت طيبة الخبر ، جليلة الأغر ، مبكية في تاريخ من فارقت ، مشكورة من أعقاب من حكمت » ⁽¹³⁾ . إنه يقدر الحب الإنساني معتبراً أنه وجد الله فيه . ففي الحب لا مذاهب ، ولا مشارق ، ولا مغارب ، ولا عربي ، ولا أعاجم ، ولا وطني ، ولا أجنبي . انتفى من دنياه الظلم والغصب ، فغدا مركز الدائرة ، والكون كله يدور حوله . لذلك فإن القروي ، في توجهه القومي ، لا يريد أن يغصب الأمم الأخرى حقوقها ، ولكنه يطالب بنصيب أمته من الكرامة والحرية والعدل . وهل يتنافى موقفه هذا مع الإنسانية التي تهدف بالأساس إلى جعل الإنسان أكثر إنسانية ، وإلى تحقيق نمو فضائله ، وتفتح عقله المفكر وقواه المبدعة ، وأن تسخر قوى العالم من أجل حريته وكرامته . ثم أليس الإنسان في كل أقطار الدنيا هو الثروة الكبرى والكنز الثمين والمعين الذي لا ينضب . فلماذا لا يتوجه الاهتمام إلى إيساعده ما دام هو الغاية . أفلا يقضي التوجه الإنساني أن يسعى المرء إلى تحرير أخيه الإنسان ؟ ثم أليس « الأقربون هم الأولى بالمعروف » ؟ إن قومية القروي لم تكن يوماً تعصباً ولا انغلاقاً ، ولا مكان للإقليمية والعرقية والطائفية في مفهومها . إنها ضرب من محاربة الظلم ، ومناهضة الطغاة ، حتى يظهر الحق ، ويُزهق الباطل ، ويتساوى الناس ، وتلغى الامتيازات ، وتعم شريعة الحب الدنيا كلها . لذلك لم يكن في نضاله لتحرير أمته ، منقطعاً عن نضال باقي

الشعوب في العالم، والتي تعاني هي الأخرى وطأة الظلم، واستبداد الحكام. فقد كان يتألم لآلام الشعوب، ويفرح لانتصاراتها، ويشير بحلول ذلك اليوم الذي سيتساوى فيها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم وأجناسهم. وقد سمعناه يهلل لانتصار الثورة البولشيفية في روسيا عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر. قائلاً:

سيجيء يومٌ وهو ليس بعيداً	يوم يساوي سيّداً ومسوداً
لا الظالمون بظالمين به كما	عهد الزمان ولا العبيد عبيداً
أرايتهم لما تفاقم أمرهم	كيف استذلوا القيصر المعبودا
خلعوه لم تعصمه عزة تاجه	فكأنما هو لم يكن موجودا

لقد تألفت القومية والإنسانية عند القروي، على عمق شعور، ورهافة حس، وتعاطف دائم مع بني الإنسان في كل مكان. حتى اعتبره بعض الدارسين نموذجاً للشعراء العالميين، الذين تباهمهم الأمة العربية أمم الأرض جميعاً. يقول عبد اللطيف شرارة:

« لو كان لنا أن نقدم للناس مثلاً على شاعر عالمي، نباهي به أمم الأرض، في صدق الشاعرية، وسلامة الحسّ الإنساني، وعلو النفس، ونقاء الروح، والتطلع إلى أسمى آفاق الخير، والجمال والمعرفة، وحب الحقيقة والدفاع عن الحق، لما وجدنا خيراً من الشاعر القروي »⁽¹⁴⁾.

أشكال النضال القومي عند القروي:

قصة الشاعر القروي مع الاستعمار، قصة التوق إلى الحرية، والثبات على دروب النضال، والإصرار على المواقف، ولو كان دونها الموت الزؤام. إنها حكاية الأحرار في تعاطيهم الدائم مع الطغاة؛ رفض للذل، وأنف من الارتهان، ورغبة عن تقبيل الأيدي التي دأبها تحديد القيود وصنع الأغلال إن كل ينابيع الأرض لا توازي نقطة دم واحدة سقطت على دروب الحرية، فشمّلت بها الأرض، وأخصبت فرحاً وبهجة ودفق حياة.

هذا الهدف العظيم: الحرية، كان شعار القروي، وغايته، ومرتباه، في رحلة عمره الطويلة. وهو في سبيل هذا الهدف وقف حياته، ونذر عمره، وضخّى بكل غالٍ ونفيس. وهل من أمل بالحرية، والأمة العربية خاضعة لبطش الاستعمار، يتآكلها التشرذم، وتمزق التجزئة جسدها العاني، فيتناثر أجزاء ضعيفة لا حول لها ولا طول؟ لقد درج رشيد وشبح الاستبداد الحميدي ينتصب بين كل بؤبؤ وجفن، فيقضم المضاجع، وينشر الرعب، ويزرع الرهبة عند كل منعطف وواد. فنقم مع الناقمين، وصبا إلى اليوم الذي يرتفع فيه الظلم عن كاهل شعبه، حتى إذا أعلن الدستور عام 1908، اصطفّق قلبه فرحاً، وهلل للديمقراطية في عهدها الجديد. ولكن هذه الفرحة لم تدم طويلاً، فسرعان ما اكتشف القروي كما اكتشف غيره، أن إعلان الدستور كان خالياً من المضمون. فنهض يدعو مواطنيه إلى خلع الخدر في مواجهة المحتل. وما أن هب الشريف الحسين بن علي (1854 - 1931) لتحرير العرب من نير الأتراك في الحرب العالمية الأولى، حتى هبّ القروي « فحمل صليبه قاصداً أرض

موعده» لينضم إلى جيش «الحسين» لو لم يقيم أصحابه في وجهه العراقيين. ولكنه جرد الكلمة سلاحاً في وجه المستبدين. فيها هو يفرح بثورة «الحسين» الذي أرسله الله لينشر مجد «هارون الرشيد» وليحرر الدين والعروبة من جور الأتراك:

عاد الرشيد وعاد باهر عصره	سبحان من بعث الحسين لنشره
لما رأى الدين الخفيف مهدداً	ورأى المهدد ممعناً في كفره
ورأى العروبة تستعين بربها	من جور طوران الغريب وغدره
لبى فجرّد سيفه من غمده	بل قل فجرد عزمه من صبره

ثم عمّ بطش «جال باشا» وانتشر ظلمه، فعلق أحرار لبنان وسورية على أعواد المشانق في السادس من أيار عام 1916. اعتبر القروي آنذاك أن هؤلاء الشهداء أوسمة في صدر الأفق، ستوحد دماؤهم العرب، كما توحدوا على اختلاف مذاهبهم في الذود عن الوطن، ودعا شعب لبنان إلى خلع الصبر، والنهوض لمحاربة الطغاة:

يا شعب لبنان بات الصبر مفضحة	ألا نفاذ لصبر أجره نفدا
أين الحماسة يا لبنان؟ قد بردت	كالثلج؟ والدم يا لبنان؟ قد جفا

وحين بدأت الحرب العالمية الأولى تلقي أوزارها، تكشف لهذه الأمة هول الصدمة التي أصيبت بها. فقد انفضحت اتفاقية «سايكس بيكو» بعد انتصار الثورة البولشفية في روسيا، ليتبين للشريف حسين أن كل الوعود المعسولة التي قطعها له بريطانيا، وعلى لسان «السير هنري مكماهون» ليست إلا سراباً وأكاذيب باطلة لا أساس لها. فقد وعدته باستقلال الأقطار العربية، وتنصيبه ملكاً على دولتها الموحدة، وإذا بها تتفق مع فرنسا على تقطيع أوصال هذه الأقطار. فمن الانتداب الانكليزي على فلسطين والأردن والعراق، إلى الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، وصدور وعد «بلفور» الشهير في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1917. كل هذه الأمور جعلت «الشريف حسين» وباقي العرب الأحرار يدركون أنهم وقعوا في شرك الاستعمار، وأن الأحلام التي راودتهم في الاستقلال والوحدة، قد تبخرت، فانتقلوا من ظلم إلى ظلم حين أصبحوا بين أيدٍ استعمارية «تزعّم لنفسها حق تمدين الشعوب، ولو اقتضى الأمر اللجوء إلى الحديد والنار»⁽¹⁵⁾.

لقد أصيب القروي، كما أصيب كل أحرار الأمة بخيبة أمل كبيرة من وعود الغرب الذي يمد يداً للمصافحة والتسليم ويخفي في الأخرى السلاح. وقد كانت قصيدته فيما بعد التي ألقاها على مسرح «سرفنتس» في «بونس أيرس» في رثاء الملك فيصل عام 1933، كافية للدلالة على كفره بالسياسة الغربية، وتمجيده للملك فيصل. وقد أثار في هذه القصيدة حماسة المستمعين، مما حدا بنائب رئيس الجمهورية الأرجنتينية خلال إنشاد القصيدة، إلى عقد يده في يد الأقرب إليه، وهذا في يد من يليه حتى تألفت سلسلة من الأيدي بلغ آخرها يد الشاعر على المنبر وهزوها جميعاً هزة المصافحة والإعجاب. وقد دعا الشاعر فيها إلى استخلاص العبرة من المفاوضات التي جرت

بين « الشريف حسين » والحلفاء ، والتي تكشف عن غدر هؤلاء وإخلافهم بكل الوعود ، موجهاً النصح إلى كل عربي كيلا ينخدع بزيغ الابتسامات الكاذبة الصادرة عن الغربيين :

خيانة أحلاف وإخلاف ساسة	وغدر الذي أكرمه فتمردا
يبدون للتسليم في « لندن » يداً	ويخفون للتسليم في « نينوى » يدا
لأمر يلاقيك الفرنجي باسماً	فزد حذراً ما زاد ذئب توددا
تراه صحيح الود وهو سقيمه	كما تكسب الحمى الحدود توردا

وهكذا استمر شاعرنا يدعو إلى اختزان الحقد على المستعمر كي ينفجر ثورة عاتية ، لا تبقي ولا تذر . من هنا كانت فرحته العارمة ، عندما انطلقت الثورة السورية الكبرى ، من جبل العرب عام 1925 بقيادة « سلطان الأطرش » ضد فرنسا التي خرجت عن مبادئ ثورتها التحررية التي أعلنتها عام 1787 ، . وصدرتها إلى شعوب العالم نبراس هدى ، ومشاعل حرية . هذه الثورة ببطولاتها الخارقة كانت مثار إعجاب « القروي » الذي أمتلك عليه « سلطان الأطرش لبّه وأسر قلبه » ⁽¹⁶⁾ حتى غدا البطل المثالي الذي امتلأ ديوان « الأعاصير » بذكرى جهاده . فقد صورّه لنا ذلك القائد الفذ ، الذي لا يهاب الردى في سبيل الدفاع عن الأوطان . وقد كانت قصيدته « سلطان والأطرش والتنك » صورة صادقة عن ذلك الإعجاب ، كما كانت صورة صادقة عن المعركة التي دارت رحاها في السويداء لإنقاذ الأسير الذي قبضت عليه السلطة الفرنسية في بيت « سلطان » :

خففت لنجدة العاني سريعاً	غضبوا لو رآك الليث ريعاً
وحولك من بين معروف جمع	بهم وبدونهم تفني الجموعاً
كأنك قائد منهم هضاباً	تبعن الى الوغى جبلاً منيعاً
ألم يلبس عداك التنك درعاً	فسلهم هل وقى لهم ضلوعاً

وهنا يبدأ بوصف المعركة وبطولات سلطان ورجاله فيها ، وصفاً حياً متحركاً ، فيصور هذا القائد المقدام ، وقد أغار على الأعداء يلقي النار برداً ، ويستقبل الرصاص مبتسماً ، ويزعق كفرخ النسر . فهو يحن إلى الوغى تحنان أم تركت رضيعها بحضن امرأة غريبة . وإذا وصل إلى ذروة المعركة والتحم بالأعداء ، وثب الى سنام التنك وثب النسور ، وهر أعداءه بلمع البرق ينبعث من سيفه ، فهووا ركوعاً ، كأن بذلك السيف جوعاً « للأفرنك » ولا عجب فسيف سلطان مثل ضيفه لا يجوع :

فخرّ الجند فوق التنك صرعى وخرّ التنك تحنهم صريعاً

وهبت وسائل الإعلام تتناقل أخبار تلك المعركة وبطولات رجالها ، حتى الأعداء لم يستطيعوا أن يخفوا ما حصل :

فيا لك غارة لو لم تدعها أعادينا لكذبنا المذيعا

ويا لك أطرشاً لما دعينا لشارٍ كنت أسمعنا جميعاً

والحقيقة أن ما قاله « القروي » في الثورة السورية وقائدها « سلطان » يفوق ما قاله في أية مناسبة أخرى . فهو مفتون بتلك الثورة التي لَقَّنت المستعمر دروساً قاسية في إرادة الحرية عند الشعوب . لذلك نراه حتى بعد انقضاء مدة طويلة على توقف تلك الثورة ، لا يزال يدعو المغتربين الى دعم أبطالها بالمال . فحين دعي عام 1934 مع رفيقه « الياس فرحات » إلى مأدبة تكريمية لهما في « بونس آيرس » ، وقف يدعو الحاضرين للتبرع من أجل سورية وأطفالها . فلا طعام ما لم يدفع كل غطريف ريالاً واحداً .. وما أن انتهى من إلغاء القصيدة حتى رمى بريال على المائدة ، وأتبعه رفيقه بمثله . فتناثرت الأوراق المالية من كل صوب ، واجتمع للمتكويين مبلغ غير زهيد :

أطفال سلطان تجوع وطالما	شبعنا بفضل فطوره الآلاف
حلف عليكم لا يذاق طعامكم	والحر لم تنقض له أحلاف
وقف لأبطال الجهاد عشاؤكم	وأعيذك أن تؤكل الأوقاف
من كل غطريف ريال واحد	ومن الشراذم عسكر زحاف
سلمان ⁽¹⁷⁾ ، قم وافتح جرابك للندي	فعلى يديك يقدم الإعاف

لكن القروي الذي كانت تحرك أخبار الثورة السورية مشاعره القومية كان ينفجر غيظاً عندما كانت تصله أخبار البطولات في جبل العرب ، فيلتفت الى لبنان ، ليراه راضياً بالانتداب ، منصرفاً عن النضال ، ومتلهياً ببعض المكاسب التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، كأن الدم جد في عروقه ، فلا ثورة ، ولا نقمة ، ولا احتجاج ، حتى كأنه غداً بلداً بلا سكان :

لبنان ، يا لبنان ، بل ما ضرني	لو قلت يا بلداً بلا سَكان
حوران هب الى الحسام كأنما	هو وحده العاني ، وأنت الهاني
والله ما ذاق الذي قد ذقته	من جور أمك أحقر العبدان
لكن ألفت الذل حتى بثَّ ما	عانيت لم تشعر بأنك عان
لم يبقَ غيرك في الوري مستعبداً	لم يبقَ غيرك أيها اللبناني

وما دمنّا في معرض الحديث عن موقف « القروي » من اللبنانيين أيام الانتداب الفرنسي ، لا بد لنا من التوقف عند أبيات له أثارت خلفها عواصف كثيرة ، ورمي الرجل لأجلها بشتى الاتهامات . فقد هاجمه الكثيرون ، وطعنوا بعقيدته الدينية ، وشهروا به كعدو للمسيحية ، كافر بإنجيلها وتعاليمها . قال القروي :

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب	بسيف محمد واهجر يسوعاً
فيا حلاً وديعاً لم يخلف	سوانا في الوري حلاً وديعاً
غضبت لذات طوق حين بيعت	ولم تغضب لشعبك حين بيعا

ألا أنزلت إنجيلاً جديداً يعلمنا إباءاً لا خنوعاً
شفعت بنا أمام أب رحيم وما نحتاج عند أب شفيعاً
أجرنا من عذاب النير لا من عذاب النار إن تك مستطيحاً

لقد أثارت هذه الأبيات حفيظة بعض المتعصبين، الذين اتهموه بالكفر وراحوا يكيلون له العدا. وبعض النقاد الذين حملوا عليه بألسنة حداد «كوديع ديب» الذي اعتبر أن ثورة القروي على المسيح تقليد لثورة «نيتشه» عليه وعلى تعاليمه، التي تشيع الذل والخنوع. واتهمه بالانحدار إلى مستوى إرضاء عامة الناس ليكسب تصفيقهم الذي يستهويه كثيراً، وبالإساءة إلى السيد المسيح والنبي العربي الكريم لأن رسالتيهما في جوهرها واحدة⁽¹⁸⁾.

ولكن «جورج صيدح» اعتبر هذا الموقف «نزوة من نزوات الغضب الشريف لأمة ديست كرامتها، واغتصبت حقوقها، وتشرد أبنائها، وتهادرت دماؤها. ولم فقد الرجل الرصين الحكيم رصانته ورويته في ساعات اليأس، فمادى في التعبير عن نغمته وحفيظته. أما جدف أيوب على ربه وهو من الأتقياء الصالحين؟» ثم رد على الذين اتهموا القروي بالكفر قائلاً: «ليتهم مثله في نقاوة الضمير، ومثانة الإيمان، ومحبة البشر، وإنكار الذات، وممارسة التقوى. دينه جوهر لا قشور. إيمان بالله لا يتزعزع وفاء للوطن، وتقديس للقرابة والصداقة، وصدق في المعاملة»⁽¹⁹⁾. أما القروي فقد أضح أن لم يصدر في أبياته هذه، عن موقف ديني بل عن موقف وطني. قال في معرض رده على «وديع ديب»: «اني ما عرضت قط في شعري لدين أو لفكر، كباحث في العقائد، بل مسخراً إياها للبلاغ الوطني، الذي وقفت عليه معظم أدبي وحياتي»⁽²⁰⁾.

وهذا الكلام مشابه جداً لما قاله لي في أثناء لقائي معه، من أنه حين كان يجاهد في أشعاره، لم يكن ينطلق من منطلقات دينية. بل كان همه كله منصباً على القضايا الوطنية والقومية. ويضيف أنه تبعاً لآريوسيته التي لا ترى أي تعارض بين الأديان، يساوي بين محمد والمسيح في الدرجة الروحية. ولكنه يعتبر أن رسالة المحبة التي بشر بها المسيح، تصلح لتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم. أما حين يقع الظلم بين الأمم، فالمنهج الإسلامي القائم على امتشاق السيف لدعم الحق هو الأحدي⁽²¹⁾.

والحقيقة أن المتنوع لحالة الشاعر النفسية فيما سبق هذه الأبيات من القصيدة يغفر للقروي هذه الثورة الشريفة. لقد كان ممثلاً حاسماً منذ بداية القصيدة، منتشياً ببطولات «سلطان الأطرش» وثوار سورية، ف شعر كأنه يصور ملحمة رائعة من البطولة العربية التي انبعثت من جبل العرب، لتعيد لهذه الأمة سالف مجدها العظيم. ولكنه في غمرة هذه النشوة التفت إلى لبنان ليرى أبنائه، ولا سيما النصارى منهم، يهيمنون في وادٍ آخر، بعيداً عن لظى المعركة، فثار ثورته هذه وهو في قمة انفعاله، لذلك لم يلجأ إلى الدبلوماسية والمداورة في طرح الأمور، بل حل بكلام مباشر على الذين اعتبرهم قد تأثروا بدعوة الإنجيل إلى المحبة والسلام، فهادنوا المستعمر وسالموا الجلاذ. وهكذا بقي الشاعر القروي لسان الأمة، يعبر عن آلامها وجراحها، ويدفع بها نحو الاستقلال والحرية. ولشد

ما كان اغتباطه حين جلت القوات الفرنسية عن سورية ولبنان، إلا أنه حذر من خدعة استعمارية جديدة، تمنع في تقطيع أوصال الوطن العربي إذا لم يحل الاستعمار البريطاني عن الدول التي يسيطر عليها. والواقع أن هذا الخدس كان في مكانه، فالاستعمار الإنكليزي لم ينجل ظله عن بلادنا، حتى ترك لنا مشكلة أكبر وأعتى هي المشكلة الفلسطينية. وإسرائيل التي زرعها الإنكليز طعنة في خاصرة الأمة العربية، كانت تركة مزعجة للعرب، ما زالوا يعانون آثارها السوداء حتى اليوم. والقروي الذي آلى على نفسه إلا أن يكون جندياً في خدمة أمته، كتب في النضال ضد الصهاينة وأسيادهم شعراً ينضح بالوطنية والوفاء القومي. وبقي حتى اختاره الله إلى جواره، يعطي بعض القصائد التي تحفز العرب إلى الجهاد المقدس لاسترجاع الحق السليب في فلسطين.

لقد كان لهذه النكبة صدى واسع لدى الشعراء العرب لا سيما شعراء المهاجر الجنوبي. ومن البديهي أن يكون « القروي » في مقدمة هؤلاء فلهم طاف في الأقاليم يجمع الإعانات للمناضلين، ولكم باع دواوينه وأنفق ثمنها في سبيل تعزيز الدفاع عن فلسطين، ودعم المناضلين وأهالي الشهداء. إذ لم يكن جهاده في شعره فقط، بل في كل جوانب حياته. لقد رأى أن مأساة فلسطين ليست مأساة عربية فحسب، بل هي مأساة الإنسانية جمعاء، ووصمة عار في جبين المجتمع الانساني لن يمحوها الزمان، ما لم يعد الحق الى نصابه والأرض الى أهلها. وهو لذلك ربط نضاله بها، وأرسل قوافيه قذائف متفجرة فوق رؤوس مغتصبها، حتى استحق كل تقدير. فقد قال عنه « يعقوب العودات » المعروف « بالبدوي الملم » (22) :

« في يقيني لو أن العرب شعوبا وملوكاً وأمراء قدموا لفلسطين الذبيح من القرابين والضحايا ما قدم لها القروي، لكان مصيرها غير ذلك المصير المرير ».

وهو تقديراً منه لهذا الدور النضالي العظيم الذي أداه القروي في شعره وحياته، أعلن في كتابه: « لو أتيح لي أن أؤرخ القضية الفلسطينية جملة وتفصيلاً، لسجلت إسم الشاعر القروي في سورة البسملة ولنحت له تمثالاً حفرت عليه :

« هذا شاعر عمل لفلسطين، ما لم تعمله الآلاف والملايين » (23).

ولعل موقف سلطات الاحتلال الاسرائيلي منه خير دليل على عظمة دوره وقيمة شعره. فقد أصدرت سلطاتها العسكرية أمراً بمنع تداول عدد كبير من الكتب العربية في الضفة الغربية المحتلة، وفي طليعتها ديوان « ابراهيم طوقان » وديوان « الشاعر القروي » (24).

الحق منك ومن وعودك أكبر	فاحسب حساب الحق يا متجر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن	من جيب غيرك محسناً يا « بلفر »
تعد الوعود وتقتضي إنجازها	مهج العباد خست يا مستعمر
عد من تشاء بما تشاء فإنما	دعواه خاسرة ووعدك أخسر
فلقد نفوز ونحن أضعف أمة	وتؤوب مغلوباً وأنت الأقدر

لقد رافق القروي أحداث فلسطين وتطوراتها فانفجر باللعنات على الخائنين، وبالدموع اللاهبة على الشهداء، ولم ييأس من ربح المعركة الحاسمة. لقد انغمس بآلام أمته، وطفى شعوره القومي على كل شعور آخر. حتى أنه رثى أمه حين ماتت، وهو المتميز بحبه الكبير لها، من خلال رثاء فلسطين ومليون لاجيء عربي، في قصيدته «أمتي فأمي فالإمام»:

كفى المرء منا أن يحس لها فقد	أبعد هلاك الجمع يفتقد الفرد؟
أبعد فلسطين ينحاح على فتى	وهل بقيت في مقلة دمعة بعد؟
بكائي على المليون أنضب أدمعي	فما أنا إلا النار والحجر الصلد
وما الحق من طبعي ولكن إذا بغى	على وطني الباغون فجرني الحقد
ألا دمعة من لاجيء استمدها	فأبكي بالبحر الذي جزره مدء
وأنذب أمماً لم يجد مثل حبها	وحبي لها لا الوالدات ولا الولد

وهكذا فإن جرح فلسطين النازف يقطر دمه من فؤاد «القروي» الذي اتصلت عروقه بعروق الأمة، فكلما تألم عضو في جسد الوطن العربي هبّ ذلك القلب يقاوم، ويدفع المرض، لتنهض الأمة وفي أعراقها تجري نسمة الحياة. وأي عضو في هذا الجسد ذاق من الألم ما ذاقت فلسطين؟

لقد كان ينظر إلى العالم العربي، فيأسف لحالة الجمود الرانية عليه، ويعجب لماذا لا ينفر أبطاله «خفافاً وثقالاً» إلى انتزاع الحق السليب، واستعادة الكرامة من مغتصبها. من هنا كانت تظهر فرحته العارمة حين يرى جنود أي بلد عربي يضغطون على الزناد، ويقفون بوجه الطغاة، أو عندما يرى أي حاكم في دنيا العرب يخطو نحو استئثار خيرات الأمة، وتوظيفها لحبه الأعداء. فحين أمم الرئيس «جمال عبد الناصر» قناة السويس، وحطم العدوان الثلاثي (الفرنسي - الإنكليزي - الإسرائيلي) على مصر عام 1956، انتشى القروي فرحاً وبعثت آماله بنهضة عربية تظهر الحق وتزهق الباطل. وقد عبر عن هذه الفرحة في قصيدة «عودة الشاعر» التي أنشدها على مدرج الجامعة السورية، ليلة الخامس عشر من نيسان سنة 1959، في المهرجان لتكريمي الذي أحياه له مدينة دمشق حين قال:

أنا العروبة لي في كل مملكة	إنجيل حب، ولي قرآن إنعام
سهل عهد شامي وبغدادى وأندلسي	عن عمق فلسفي، عن عدل أحكامي
حطمت أشرس ضارٍ في جزيرته	ما ابتلّ نعلي، ولا دنست أقدامي
فارتد عن «بر سعيد» جيشه كلما	خطت على الرمل، أو أشباح أفلام
وإبني فتى النيل حلّاني بجوهرة	عزّت على كل غوّاص وعوأم
عاش الذي أذب الطاغى وكبكه	عن القناة ذليلاً خافض المام

وتمرّ السنون والنار العربية الموعودة خامدة، والأمة يتأكلها الصقيع والجمود، فلا الأنظمة العربية أعلنت

حرب التحرير ، ولا العدالة الدولية أصدرت تشريعات تنصف الفلسطينيين المشردين في كل أرض . فإذا بالثورة الفلسطينية تنبعث من واقع الظلم والتشرد ، وإذا باللاجئين ينطلقون من بين الخيام ، ليأخذوا على عاتقهم مهمة التحرير ، وبعثونها ثورة مدمرة تثير الرعب في قلوب الصهاينة ، فيردون عليها بقصف المخيمات وضرب القرى وحك المؤامرات . لقد كانت هذه الثورة مبعث إعجاب « القروي » ومخط آماله القومية ، فغناها جيل شعره ، واعتبرها أقصر الطرق إلى تحرير الأرض وعودة الشعب . لقد شفي غليله حين رأى هذا الشعب اللاجئ ، شهيد الظلم والعدوان ، قد هب من لحدّه ومزق أكفانه ، ليثور على جلاديه ويحطم صلفهم وغرورهم . وقد كانت قصيدتنا « جبل المأساة » و« بُعث الشهيد » عام 1965 أولى هذه القصائد التي تعبّر عن فرحته العارمة ، وتروي حكاية الشعب الذي ثار في أكواخه ليفرض كيانه على الدنيا جمعاء .

يقول في القصيدة الأولى مبشراً فلسطين بالنصر :

يا فلسطين استعدي للقانا	حان يوم النصر يا أماء حانا
وعد بلفور كلفور انتهى	في جحيم النار عصفاً ودخانا
جبل المأساة في أعناقنا	لم يركعنا وركعنا الزمانا
شعبك الجبار من أكواخه	فرض اليوم على الدنيا الكيانا

ثم يلتفت إلى آل صهيون مهدداً بلسان الثوار الفلسطينيين ، ومشيراً إلى أن الأمة العربية كلها تدعم الفلسطينيين في ثورتهم . فيقول :

آل صهيون إجعلوا صحراءنا	جنةً ، لن تأكلوا إلاّ هوانا
عوض الأردن من أكبادكم	سفيض النيل فيها فيضاننا
وعدنا الحق ولسنا وحدنا	أمة دوّخت الأرض ورانا

أما في القصيدة الثانية فإنه يهزج بلسان الفلسطيني النائر لانطلاقة هذه الثورة العاصفة المدمرة الهوجاء ، فيقول :

بُعث الشهيد ودرج الحجرا	من قال إني لاجئ كفرا
مزقت أكفاني وها أنذا	خلف الحدود أجابه الخطرا
وأثور عاصفة مدمرة	هوجاء لن تبقي ولن تذرا

كان القروي في مغتربه يتلظى غيظاً من الواقع العربي الذي يسيطر عليه الجمود . ويثور عندما يرى عدداً كبيراً من الحكام ، وقد وضع يده بيد الاستعمار خالق إسرائيل ، وأقام معه علاقات ودية ، ناسياً ما قدمه لنا من كؤوس السم وأسباب الشقاء . لذلك كان يتطلع إلى الشعوب العربية ، منتظراً منها وثبة جبارة ، تعيد إلى هذه الأمة ومجدها التليد وعزها الغابر . فإذا هب « عبد الناصر » لمجاهدة الصهاينة كان يطرب ويفخر . وإذا ثارت

ثائرة الشعب الجزائري على الاستعمار، يلوح له من دمشق لعقد الخناصر على الثار. ولما قامت الصورة اللببية في أيلول سنة 1969 وبعد أن حلت بالعرب نكسة كبرى من جراء العدوان الاسرائيلي عام 1967، وقف « القروي » يهنئ الشعب العربي اللبي بهذه الثورة الحكيمة، التي لم تسفك دماً، ولم تشهر سلاحاً. إنها ثورة شباب همه أمته، يضحى في سبيلها كل غال ونفيس، ويسعى من أجل عزتها جاعلاً رائده العقل الرشيد. ثم يميل بعد ذلك الى مخاطبة الملك « فيصل » ملك السعودية فيدعوه إلى مجاراة عصر العلم، اذاً ماذا يضير الدين إذا سجدنا لله على قمة الجوزاء لا في أسفل الوهاد؟ ثم يدعوه كي يطهر أرض السعودية من القواعد الأميركية عدوة الدنيا والدين، لا أن يقتصر دوره في المعركة على إرسال النقود إلى دول المواجهة، وكفى الله المؤمنين شر القتال. يقول مخاطباً الملك:

ان في الظهران شمشون الأذى	وعدو الدين والدنيا اللدودا
أمن الإسلام أن تبقى له	ذلك صاحب والخل الودودا
وتظن الله يرضى عنك إن	كنت خوف النقد تعطينا النقودا

ولقد وعى « القروي » أهمية النفط العربي كسلاح يشهر في وجه الأعداء. فدعا إلى تأميمه، أو إلى قطعه على الأقل عن الدول المعادية، وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من اندلاع حرب تشرين عام 1973 والتي لجأ فيها الملك « فيصل » مع غيره من الحكام العرب الى استعمال النفط في المعركة، وقطعه عن الدول التي كانت تدعم إسرائيل. فكانه قد أخذ بنصيحة القروي التي وجهها إليه قائلاً:

أمم النفط وأسقطه ندى	يصبح الرمل سلاحاً وجنودا
أو فموتهم إليه عطشاً	أخذاً عن « ويغل » الدرس المفيدا
ترجع القدس إلى أبنائها	وتعد شعب فلسطين الشريدا
وتسدك الدولة المسخ التي	أقسمت إن لم نبدها أن تبيدا

أما أميركا التي ورثت بريطانيا في تعهد إسرائيل وحمايتها. فإنها عدوة العرب بعد أن صار أبنائها عبيداً لشيالوخ اليهود، يقدمون لهم المال، وللعرب الحديد والنار. والحقيقة أن ما قدمته أميركا لإسرائيل منذ نشوئها حتى اليوم، من أساليب الفتك والدمار يفوق كل تصور. وإسرائيل لا تراعي قوانين الحروب، فتغير بهذا السلاح الأميركي على المدنيين والأبرياء. لذلك يقول « القروي » عنها:

مئتا مليون حرراً أصبحوا	للشيالوخ ⁽²⁵⁾ إماء وعبيداً
يبدلون المال والنفس لهم	ولأهل الشرق ناراً وحديدا
أمة لا تعرف الرحمة ما	دللت إلا كلاباً ⁽²⁶⁾ ويهودا

لقد كانت نكسة الخامس من حزيران عام 1967 أكبر صدمة تبلى بها الأمة العربية التي كانت تنتظر تحرير

فلسطين، فإذا بها تبلى باحتلال أجزاء جديدة من أرضها في الأردن وسورية ومصر. فهب القروي يدعو إل خلع السلم والسير في ركاب حرب الثأر، لا أن نبقي أسرى أفكار سلام زائف يأتينا بها « روجرز » وغيره من المبعوثين الأميركيين. فدعا في قصيدة « المدافع الخرساء » قبل حرب تشرين 1973 بأسبوعين، الى ثورة شبيهة بثورة « فيتنام » التي نفوقها عدداً، وإلا فلننقطع سلاحنا إلى الفذائي كي يقاتل به الأعداء، فلا يبقى مركوماً في المستودعات. ثم يخاطب تلك المدافع قائلاً:

رحمة يا مدافع الثأر إنّا قد ضجرنا وحقنّا أن نضجر

زيجري، أو فنبجي، أو فموئي أو فموقي، فموت مثلك أستر وتشاء الصدف أن تلقى دعوة القروي استجابة سريعة. فإذا بتلك المدافع الخرساء تزجر بعد ذلك بأسبوعين، لتحرر سوريا جزءاً من أراضيها، وليجتاز الجيش المصري قناة السويس، ويحطم خط « بارليف ». فيهلل شاعرنا لهذا النصر، حتى إذا دعي إلى أمسية شعرية في الجامعة الأميركية في بيروت أنشد قصيدته « ألأهات اسقني نفطاً » التي يشيد فيها بالحكام العرب الذين قاتلوا وأحرزوا النصر، أو قطعوا النفط وساهموا بتركييع الأعداء. معلناً أن إفناء اليهود هو انتصار لكل أهل الأرض، إذ تنتفي المجازر والحروب ويعم الحب أرجاء الكون كله، فيقول:

أما والله لو محيت يهود لهللت القبائل والشعوب
ولانتفت الدنيا والزرايا ولانتهدت المجازر والحروب
فكل قلوب أهل الأرض حباً وكل حجارة الدنيا قلوب

ولعلّ ما يدعو الى الأسف الشديد، أن تكون الأمة العربية، قد عادت بعد حرب تشرين إلى سابق تمزقها، فتقوى النزعة القطرية، ويخف التضامن العربي، وينتشر التقاتل بين أبناء البلد الواحد، بما لا يخدم إلا أهداف اسرائيل وطموحات حكامها. ولعلّ الحرب التي عصفت بلبنان منذ عام 1975 كانت أقوى تلك العراقيل التي تنهك الأمة العربية وتضعف قوة أبنائها، وتحول جهودهم عن معركة التحرير، إلى التلهي بالفتن الداخلية والحروب الأهلية. و« القروي » الذي دعا « عبد الناصر » في السابق ليكف عن مقاتلة « البدر » في اليمن، ويوجه جنوده نحو فلسطين، نراه يتقطر ألماً لهذه الحرب المجنونة في لبنان والتي خاضها العملاء تحت شعار الصليب، فذبحنا فيها بعضنا بعضاً، كي تفرح إسرائيل وتنعم في احتلالها أرض فلسطين. فيقول:

تخذنا الصليب شعاراً ورحنا لسفك الدماء نسوق الجيوشا
نذبّح أطفالنا كالفراخ ونبكي المسيح لنضحك « موسى »
فصارات قرانا قبوراً وأمست أسرنا الحالمات نعوشا
وتنها على الناس عجباً كأنّا دككنا عروشاً وشدنا عروشا
فكم ألف مليون عام ستمضي لكي نرتقي ونصير وحوشا

و حين أعلن عن فكرة الوحدة بين سوريا وليبيا عام 1980 ، هبّ « القروي » يبارك هذه الخطوة ، ويدعو الرئيسين « الأسد » و « القذافي » الى تمتين عرى الوحدة ، ورص الصفوف لمجاهدة الصهاينة ، الذين يرقبون غفلتنا ليأتونا على حين غرة ، فنحن لا نقل عنهم عدداً وعدداً . بل نمتار عليهم بقوة الإيمان التي تحصننا :

فجاهدا ليس الذي	جاهد ، كالذي قعد
عدونا مجهز	بألف عين ورصد
يرقب منا غفلة	يغتمها لحرب غد
ونحن لسنا دونه	في عددٍ ولا عدد
يمنعنا سد من الإيمان	يعلو كل سد

إن هذا التهليل للوحدة ، ليس جديداً عند القروي ، فقد أمضى عمره يحارب الغيوم التي تمنع إطلالة شمسها :

شمس العروبة عيل صبر المجتلي شقي حجابك قبل شق الرسم لي

لقد كره كل الحدود التي أقيمت بين كل قطر عربي وآخر ، وكيف له أن يحب ما أحبه المستعمر وأوجده خدمة لأغراضه الاستعمارية ، وسياسة التفرقة التي ينتهجها ؟ فقد قال سنة 1948 :

أرتاب في حب الحدود لأنه حب يشاركني به المستعمر

لذلك اعتبر أن هذه الكيانات المتناثرة ، في قلب الوطن العربي ، ليست إلا تنوعاً ضمن الوحدة ، ما دام جهادها واحداً في سبيل الأهداف القومية ، وما دام قلبها واحداً وأرومتها واحدة . ولقد وفق الى تصوير ذلك عبر خيال تشيبي ، قارن خلاله هذا الواقع ، بأصابع كف المرء ، التي على تعددها تشكل قبضة واحدة في امتشاق السيف لرد العدوان . قال ، عندما وصل إلى البرازيل أول وزير مفوض للجمهورية اللبنانية المستقلة سنة 1945 :

وما ضرنا إن لم يك العرب وحدة	وقد وحدثنا في الجهاد المقاصد
أصابع كف المرء في العد خمسة	ولكنها في مقبض السيف واحد

وكم كانت فرحته عامرة حين قامت الوحدة بين سوريا ومصر عام 1958 ، ولكم غنى لها جميل شعره . تكفي قصيدة « عودة الشاعر » التي كانت أغنية من القروي في عرس الوحدة العتيدة ، ضمنها كل مشاعر الفرح بهذه التجربة المظفرة مبهتجاً بوصوله إلى دمشق الفيحاء :

حيث العروبة شدّت أصر وحدتها	وأسلم الأمر ضرغام لضرغام
حر بنى ، وأخ حر أتم ، فيا	لليعربيين ، بناءً وتقام
فالأرض تياهة العطفين راقصة	على الأهازيج في مصر وفي شام

لنجرفن السدود السود بينها بمارج من لظى مهدور طام

ولكن رياح الأحداث لم تهب كما تشتهي سفن القروي . فقد فشلت الوحدة وهبت رياح الفرقة من جديد ، فانتكس العرب عام 1967 ، واشتعلت الأحداث في لبنان سنة 1975 ، وانفردت مصر بإجراء صلح مع إسرائيل ، فتضاءلت أوراق التضامن العربي ، وتضاءلت فرص الوحدة الشاملة .

في هذا الخضم المضطرب أعلنت كل من سوريا ليبيا عام 1980 عزمها على إجراء وحدة بينها ، فإذا بالقروي يهلل لهذا النبأ الذي ينسجم مع طموحاته الوجدية ، فيأمل معه ، وهو في الثالثة والتسعين من عمره ، أن تشق شمس العروبة حجابها ، فيتحقق حلمه الكبير ، وتعمّ الوحدة الكبرى بين كل الأقطار العربية . لذلك حث قادة البلدين على إرساء الوحدة وفق قواعد جديدة مدروسة ، تأخذ بعين الاعتبار الخلل الذي حصل في التجربة الوجدية السابقة بين سورية ومصر مما أدى إلى الانفصال ، ودعا إلى توسيع رقعتها لتصبح وحدة شاملة كما أرادها الله . يقول موجهاً كلامه إلى الرئيس « معمر القذافي » :

هذا هو الرأي الأسد	كفك في كف الأسد
فسرّ على بركة الله	ولا تخشى أحد
وأرسيها وحدة	على قواعد جدد
لا مثل هاتيك التي	كانت قصيرة الأمد
ووسّعاً رقعتها	فليس للوحدة حد
حتى تعم الوحدة	الكبرى وتحيا للأبد
أرادها الله وما	لما أراد الله رد

وهكذا ، فإن حلم الوحدة ، ما زال يسكن ذهن الشاعر ، الذي عمل لها طيلة حياته ، وبات في شيخوخته يراقب انبلاج فجرها . آملاً رغم تراكم الخلافات العربية ، واستحكام بعضها ، أن يرى الحدود تمحى ، والأقطار تتوحد ، وعلم الوحدة العربية الشاملة يخفق في كل سماء .

إن المجال ليضيق في هذه العجالة لعرض الأشكال التي اتخذها نضال « القروي » القوي ، والتي كان الجهاد في سبيل الاستقلال والوحدة عنوانها الرئيس . فقد تقشف الشاعر في حياته الخاصة ، بل وتصفّ ، ناذراً نفسه لخدمة أمته ، يجود لها بشعره وكفاحه وماله . بينما هو يعيش بالكفاف ، ويضطر للاستمرار بالجهاد في سبيل العيش حتى في شيخوخته :

وإنني في الستين ما زلت مكرهاً لأجل كفافي أن أكّد وأتعب

وإكباراً لهذا التفاني في سبيل العروبة ، قال عنه « أكرم زعير » :

« فلو جاز أن يكون للوطنية قديسون، لكان الشاعر القروي أحدهم، وقد علمت من أبناء وطنيته الصوفية ما حقق الأمل فيه »⁽²⁷⁾. وقد أيدته في ذلك « جورج صيدح » فاعتبره « قديس الوطنية العربية الثابت على مبادئ العروبة والزاهد في مالها وحكامها »⁽²⁸⁾. وعدّه « وديع ديب » أخلص شعراء العرب للقومية دون استثناء⁽²⁹⁾.

أما ما قدّمه هذا الشاعر الزاهد من قصائد قومية، حلت هموم أمته، فكانت أناشيد هازجة بالفرح في لحظات الظفر والانتصار، وحوافر دافعة للنهوض في لحظات الضعة والاستكانة، فقد جعلته من كبار الشعراء القوميين العرب، حتى صار بعده الكثير من الدارسين والمؤرخين « شاعر القومية العربية » دون منازع. وقد قال فيه « البدوي الملم » الذي زار البرازيل وتعرف عليه عن كثب: « لو كان من حقي، كعربي قومي، يتمنى لأمتي كل خير، ويدفع عنها كل ضير، أن أوزع الألقاب على شعراء (الضاد) وكتابتها، وأمنحهم الأوسمة، لأطلقت على القروي « شاعر القومية العربية » وزينت صدره بأرفع الأوسمة وأسماها »⁽³⁰⁾.

وإذا كان لنا من ملاحظة نبديها، فهي أن هذا الشعر، مرتبط إلى حد بعيد بالمناسبة التي تولده. فمن يقرأ ديوان « القروي » يلاحظ أن الكثرة الساحقة من قصائده القومية، مؤرخة في أسفل الصفحات، ومردودة إلى المناسبات التي قبلت فيها، حتى ليبدو الشاعر منفصلاً كثيراً بالظروف القومية، ومنساقاً بكلية إلى الهنيئات الانفعالية، التي تثير تجربته، وتفجر شعره الذي تصل شظاياه إلى رؤوس كل الأعداء والمتآمرين والجبناء والخاملين. بينما ينبغي على الشاعر الذي يؤدي رسالة في أمته، أن يستمر في مهمته في كل الظروف، فيفعل في مجتمعه فعل قطرات الماء الذي يتكفل دوام تساقطها بتفتيت أقسى الصخور، وأن يحلل الواقع ويستشرف إمكانات المستقبل، فينبّه قومه إلى تدارك واقعهم، وصنع مستقبلهم بأيديهم. يقول بريتون: « إن دور الشعر أن يظل يتقدم دون توقف، أن يكتشف مجال الإمكانيات في كل وجهة، وأن يبدو دائماً، مهما يحدث من أمر، قوة تحريرية ورصدية »⁽³¹⁾.

ولكن هذه الملاحظة، لا تنتقص من قدره، ولا تخفض من شأنه كشاعر عمل في سبيل قومه ما لم يعمل إلاّ قلة من المصلحين والقادة المناضلين، وتحمل من أعدائهم، وعملاء أعدائهم، ما نغص عليه عيشه وتركه منهكاً في ساحة الجهاد المرير.

ولعلّ ما ينصف هذا الشاعر الذي لم تتحقق طموحاته في رؤية أمته موحدة من المحيط إلى الخليج، وقبل أن تأفل شمس عمره، أن شعره سيخلد مع الزمان، ما دام الخلود مكتوباً للشعر الإنساني، الذي يتلخص من حدود البيئة الضيقة، ليصبح قدراً شاملاً للإنسان في كل زمان ومكان. وغداً عندما يزول ظل المناسبة عن شعره القومي، وتغيب الأمكنة والأسماء من دنياه، سوف يبقى هذا الشعر عنصراً من عناصر الأدب الإنساني، ما دام الإنسان يعانق في أحلامه طيف الحرية، ويسعى إلى الكرامة، وينشد في حياته إعلاء شأن الحق والعدل.

الحواشي

- (1) ديوان الشاعر القروي - المجلد الأول - الطبعة الخامسة - دار المسيرة - بيروت 1978 . (المقدمة ص 26) .
- (2) من حديث للشاعر القروي معي بتاريخ 1980/5/24 .
- (3) عبد اللطيف شراره، الشاعر القروي، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1960 (ص 24) .
- (4) ديوان القروي، المجلد الأول (ص 31 - 32) .
- (5) من حديث له معي في 1980/5/24 .
- (6) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، الطبعة الأولى، دار النهار للنشر، بيروت 1968 (ص 47) .
- (7) وجيه كوثراني، الاتجاهات السياسية والاجتماعية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860 - 1920، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت 1976 (ص 128 - 131) .
- (8) أكرم زعيتر، مهمة في قارة، دار الحياة، بيروت 1950 (ص 25) .
- (9) ايليا أبو ماضي، بتراب، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت 1974 (ص 147) .
- (10) جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في المهجر الأميركية، منشورات جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1956 (ص 225) .
- (11) ديوان القروي، المجلد الأول، المقدمة (ص 36) .
- (12) ديوان القروي، المجلد الأول، المقدمة (ص 36) .
- (13) ديوان القروي، المجلد الأول، المقدمة (ص 34 - 35) .
- (14) عبد اللطيف شرارة، الشاعر القروي، (ص 12) .
- (15) عمر الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، الطبعة الثانية، دار الشرق، حلب 1963 (ص 283) .
- (16) أخبرني الشاعر القروي في أثناء لقائني معه بتاريخ 1980/5/24 أنه يحلم بزيارة سلطان الأطرش في جبل العرب لكي يتعرف عليه قبل أن يموت، ثم أخبرني فيما بعد أنه قد زاره في صيف العام نفسه، وكان اللقاء مؤثراً جداً .
- (17) « سلمان نجم البكفاني »، المعروف بالجندى المتطوع، وقد اشتهر بجمع الإعانات لمتكوي جبل العرب .
- (18) وديع ديب، الشعر العربي في المهجر الأميركي، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت 1955 (ص 135 - 136) .
- (19) جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في المهجر الأميركية (ص 232 - 234) .
- (20) محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب المهجري، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1973 (ص 605) .
- (21) من حديث له معي بتاريخ 1980/5/24 .
- (22) البدوي المثلّم، الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية، 1956 (ص 27) .
- (23) المرجع نفسه (ص 275) .
- (24) جريدة السفير، العدد 1821 تاريخ 1979/5/17 (ص 10) .
- (25) الشبالخ: جمع شبلوخ، وهو رمز الشح اليهودي .
- (26) ذكرت صحف العالم أن الرئيس « جونسون » عطل جلسة « السنادو » حين أئذروه بموت كلبه .
- (27) أكرم زعيتر، مهمة في قارة، (ص 20) .
- (28) جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في المهجر الأميركية (ص 221 وص 225) .
- (29) وديع ديب، الشعر العربي في المهجر الأميركي (ص 103) .
- (30) البدوي المثلّم، الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية (ص 274) .
- (31) إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: 1978 (المقدمة ص 8) .